

درجات ثلاث للإيمان

"لأنّ الله سبق فنظر لنا شيئاً أفضل..."

نقيم في هذا الأحد - أحد النسبة - تذكّراً للآباء القديسين الذين قبل المسيح. ونسمع بولس الرسول وهو يشير إلى أهمّ الآباء من العهد القديم بالاسم أو يذكر أعمالهم، ويتعجّب من إيمانهم: "فهؤلاء كلّهم مشهود لهم بالإيمان".

تتكلّم الرسالة اليوم عن درجتين من الإيمان، فيشير المقطع بكامله إلى درجة الإيمان التي في العهد القديم. وتشير الآية الأخيرة منه إلى درجة الإيمان الذي في العهد الجديد: "لأنّ الله سبق فنظر لنا شيئاً أفضل" أي تجسّد المسيح. وهناك درجة ثالثة سابقة وهي الإيمان الفطريّ - الطبيعيّ.

الإيمان الفطريّ هو نتيجة طبيعيّة لوجود المنطق عند الإنسان، حيث هذا الأخير، بحكم حرّيته وخياره وعقله، يحمل في داخله، تجاه أبسط تفاصيل الحياة وتجاه المهمّ منها، "مبدأً" يختار ويفصلّ على أساسه. فلا يوجد إنسان لا يؤمن، إلا المعتوه أو المريض، أي في الحالة التي يفقد فيها الإنسان المنطق أو الحرّيّة! وبهذا الإيمان الفطريّ استنتج الإنسان وجود الله من أعماله وخليقته. لكن الإيمان في هذه الدرجة كان فكريّاً منطقيّاً، ولطالما خلق الناس آلهتهم كما يريدونها لهم. والتزموا بإيمانهم هذا طالما توافق مع ظروف حياتهم ومصالحها.

أمّا الإيمان الكتابيّ، وكما جاء في العهد القديم، فهو إيمان ياله شخص دخل التاريخ، له إرادته ورغبته فيه ونظرة للإنسان وللعالم. فإيمان الشعب في العهد القديم كان مبنياً على أساس الأحداث، أي الأنبياء والعجائب. لأنّ الله يتدخّل بواسطتهم في التاريخ ويعلن إرادته ووصاياه، فيعلن قوّته ومحبّته بالآيات التي تمّت، فلا يُخزي هكذا إيمان عبّده، لا بل يقوّيه. هكذا عاش إبراهيم رجلاً حبّاً وإيماناً بالله، وظهرت قوّة الله في إيمان جدعون وشمشون وداود والغتية الثلاثة، الذين قهروا الممالك وسدّوا أفواه الأسود وأطفؤوا حدّة النار... بالإيمان ثبت هؤلاء جميعهم، وأظهر الله فيهم قوّته وحبّه. لذلك لم يكن الإيمان

للشعب آنذاك مجرد "معتقد" أو أدباً؛ بل كان "التزاماً" بإلههم، الذي حين يكونون له بنين يكون لهم إلهاً. وكان الأمر المثاليّ عند اليهوديّ آنذاك هو حفظ وصايا الله، والالتزام بالعهد المبرم بين الله وشعبه. لذلك كان الإيمان مبنياً على أساس الوقائع وليس الفرضيّات، وكان الإيمان مسألةً تشغل الحياة وليس الفكر فقط، وصار يقتضي التزاماتٍ بالله الذي لا يتردد بتوجيه وصاياه وإرسال أنبيائه حين ينسى الشعب حفظها. وبإيمان كهذا، لم يعد الله نظريّة بل صار شخصاً، يظهر إلى جانب المنطق البشريّ ما هو أكثر وأعظم أي قواه وعجائبه؛ ومنها ما عدده بولس في الرسالة اليوم. هذه الأعمال لا يحقّقها المنطق البشريّ وفرضيّاته بل الإيمان بوجود الله الحيّ وبتدخّله الخيّر والمحقّ. هكذا فكرة الله هنا ليست مبدأ بل هي حدثٌ يُبدّل مجرى التاريخ. ولما امتلك الآباء في العهد القديم "هكذا إيمان" استطاعوا أن يواجهوا الممالك وهم ضعفاء، وأن يتحدّوا الأسود وهم مجرد بشر، وأن يتغلّبوا على الموت وهم خاضعون له، فنالت نساءً على يد إيليا وأليشع أولادهنّ بالقيامة. وكلّ هذه الأحداث، لا يطلبها ولا يفكّر بها المنطق البشريّ الذي يعترف بالله كفكرة، إنّما يتجرّأ عليها الإيمان الكتابيّ بالله الحيّ فقط.

ومع ذلك فإنّ الله "نظر لنا شيئاً أفضل". فإذا كان الشعب قد آمن بهذا المقدار على يد الأنبياء وبواسطة ظهور بعض العجائب، فكم بالحريّ علينا نحن ألاّ نهمل خلاصاً كهذا، جاء على يد الربّ ذاته. لذلك في العهد الجديد بعد تجسّد المسيح لا نعرفُ الله من أنبيائه ومرسليه، بل نعرف الله مباشرة. فإذا كان هؤلاء قديماً قد أظهروا إيماناً وثباتاً كهذا كم بالحريّ علينا نحن، المسيحيين، بعد ظهور الربّ ذاته بالجسد أن نظهر ثباتاً وأعمالاً أعظم!

بحضور الربّ بالجسد وتأسيس كنيسته جسداً له عبر التاريخ وإرسال كلّ التلاميذ شهوداً له، صار الإيمان أسهلّ ويتطلّب أعمالاً أكثر ويستطيع أن يواجه تحديّات أقصى. وهذا ما أظهرته سحابة الشهداء والقديسين والمتبّتلين والرسول في العهد الجديد، وهذا ما ينتظره تجسّد المسيح والميلاد القادم من كلّ واحد منّا، آمين.